

بعد اضطراب، وانطلقت أنفاسها بعد احتباس، ومضت دموعها تنهمر، وأوت إلى ذراعي كأنها الطفل قد استسلم إلى أمه الرءوم، واطمأن رأسها إلى كتفي، وقضت كذلك لحظة ما نسيت ولن أنسى عذوبتها، وما أرى إلا أنها أحست هذه العذوبة! فقد ثابت إليها نفسها وراجعها رشدًا، ولبثت حيث كانت حتى بعد أن سكنت دموعها، كأنما أعجبها مكانها مني، وكأنما وجدت شيئًا طالما كانت تتوق إليه فلا تجده ولا تظفر به، ثم سمعتها تقول بصوت خافت بعيد: لقد كنت أحب أن أكون بهذا المكان من أُمِّي لا منك أنت أيتها الأخت الصغيرة؛ فإنك لم تُخلقي لتدلي أختك وتمنحها مثل هذا العطف والحنان.

يا لك من ليل مظلم عريض تضطرب فيه هذه الأضواء الضئيلة البعيدة التي تفنى، ويبسط عليه هذا السكون المخيف ظلالًا لا حدَّ لها، ثم يندفع فيه من حين إلى حين صوت هذا الطائر العزيز كأنه سهم مضيء ينطلق في بحر من الظلمات!

كل شيء هادئ مطمئن من حولنا حتى نفس هذه الفتاة التي كانت تائرة منذ لحظة فقد اطمأنت وسكنت، وانتهت إلى حال تشبه النوم، وإني لأخذ نفسي بالهدوء وأكرهها على الاطمئنان، وألزم جسمي السكون في هذا الوضع الذي هو عليه ليبقى هذا الرأس البائس المحزون مستريحًا إلى هذه الكتف الصغيرة الحنون.

ولكن الفتاة ترفع رأسها وتستوي جالسة، ثم تبسط ذارعها فتطوق بها عنقي ثم تضميني إليها، ثم تقبلني، ثم تقول: إياك أن تفعلني ما فعلت أو تُخدعي كما خُدتُ أو تُدفعني إلى مثل ما دُفعت إليه، إنك إن تفعلني تري نفسك في مثل ما تريني فيه الآن من الجزع والهلع، ومن اليأس حتى من رحمة الله، ومن القنوط حتى من رُوح الله الذي لا يقنط منه إلا الكافرون.

قلت: وماذا فعلت إذن؟ وما هذا الشر الذي دُفعت إليه؟ وما هذا اليأس الذي تغرقين فيه؟ وما هذا الهم الثقيل الذي صُبَّ علينا صَبًّا ولم نكن ننتظره ولا نتوقع له مقدمًا؟ قالت وهي تقبلني: لست أدري أحدثك بذلك أم أكتمك إياه؛ إني لأعتدي على سنك إن تحدثت إليك: وإني لأعرضك لمثل ما أنا فيه إن كتمتك الحديث.

قلت: فإن صمتك لن يُعني الآن شيئًا؛ فقد عرفت أن همًّا ثَقِيلًا أَلَمَّ بنا، وأن حزنًا مِمُّضًا يمزق قلبك وقلب أُمِّنا، وأن يأسًا مهلِكًا قد استأثر بنفسك استئثارًا، وما أنا بمقلعة عن السؤال والبحث والتفكير حتى أعلم علم هذا كله، وإني لحمقاء إن قبلت أن أُنزَع من ذلك العيش الناعم السعيد الذي كنت أستمع به دون أن أعلم لماذا أُنزَع منه نزعًا، فحدثيني حديثك، فمن يدري لعل فيه لي عظة ولك عزاء.